طبقات النحويين واللغويين : دراسة تحليلية

د/ صادق عبد الله أبو سليمان *

د/ عبد الله أحمد إسماعيل **

Abstract

Ranks of Grammarians and Linguists. analytical study

This research is concerned with the ranks of linguists and grammarians,specialy the"Tabuqat Al-Nahwyeen wal-luguawgeen" and "Marateb Al- Nahwyeen" The research studied their significance, methodology, contents, originality and the influence of earlier writings in other disciplines. In addition, it tackled the criticisms leveled at these books and the influence these books exerted on modern Arab scholars and orientalists. The researcher discussed the must important question raised in the literature, such as: reconsidering the ranks setup (structure), questioning the truth of Abu Al-Aswad, origination of the field, the originality of Arabic grammar and the claim of grammatical research center in Islamic for being regions defined as grammatical schools.

ملخص البحث

انشغل هذا البحث بكتب طبقات النحويين واللغويين ، خاصة كتابي الزبيدي وأبي الطيب اللغوي ، فانكفأ عليها درساً في أهميتها ، ومنهجها ، ومحتواها ، وأسلوبها ، وأصالتها ، ومدى تأثرها بما سبقها من كتب الطبقات في العلوم الأخرى ، وما يؤخذ عليها ، وأثرها في باحثي العصر الحديث من مستشرقين وعرب ، وفي الوقوف على أهم القضايا التي أثارتها مؤلفاتهم كقضية إعادة النظر في هيكل الطبقات ، والتشكيك في ريادة أبي الأسود الدؤلي وأصالة النحو العربي ، وأهلية مراكز الدرس النحوي في الأمصار الإسلامية لأن توصف بأنها مدارس نحوية .

---

* أستاذ مشارك بكلية الآداب – جامعة الأزهر بغزة .

** أستاذ مشارك بكلية الآداب –جامعة الأزهر بغزة

مدخـــل:

عُني علماء العربية القدماء بكتابة تاريخهم العربي والإسلامي وصنفوا فيه فيضاً من كتـــب الـتراجم ، والسـير والطبقـات ، وربمـا كـانوا متـأثرين ، في ذلـك، بـالفرس والرومان والسريان ، فيما كتبوه ، في تاريخ ملوكهم وأمرائهم، ومماليكهم [١].

ويُعد كتابا "الطبقات الكبرى" لمحمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ)، و"طبقات فحـول الشعراء" لمحمد بن سلام الجُمحي (ت ٢٣١هـ) أول كتابين كبيرين ألفا في الطبقات عند العرب[٢] ، ثم تتابع بعـد ذلك ظـهور كتـب الطبقـات في النـاس مـن علمـاء وغـيرهم، كالمحدِّثين والفقـهاء والحكمـاء والأطبـاء والأعيـان والأدبـاء والقُـرَّاء والوعـاظ وأصحـاب المذاهب، وحتى العميان والعوران والحمقى كان لهم نصيب في هذا المجال.

وفي مجال اللغة والنحو- مجال اختصاصنا وجدنا عنايـة جماعـة مـن المؤلفـين بكتابة أخبار اللغويين والنحويين، وأحصـوا كتبـهم وآثـارهم وحـددوا تواريـخ ميلادهـم ووفياتهم وبسطوا القول في مذاهبهم وآرائهم . وقد أشار الباحثون في القديم والحديـث [٣] إلى أن أوائل ما ظهر من كتب طبقات النحويين واللغويين وأخبـارهم كـان كتبـاً صغـيرة الحجم ككتاب طبقات النحويين البصريين وأخبارهم للمبرد (ت٢٨٥هـ) الذي لم يصـل إلينا ،وكتاب أخبار النحويين البصريين للسيرافي (ت٣٦٨هـ) وهو كتاب صغير الحجم، قصره صاحبـه علـى نحـاة البصـرة، ولم يذكـر شـيئاً عـن غـيرهم مـن نحـاة الكوفـة أو معاصريه، وهو في جملته كتاب أخبار ليس إلا [٤] .

وفي زمـن السـيرافي ظـهر كتابـان هامـــان في "طبقـات النحويـين واللغويـين" وأخبـارهم، همـا: "مراتـب النحويـين" لعبـد الواحـد بـن علـي أبـي الطيـب اللغـوي (ت٣٥١هـ)[٥] ، و"طبقات النحويين واللغويين" لأبي بكـر محمـد بـن الحسـن الزبيـدي الأندلسي (ت٣٧٩هـ) . ويعد هذان الكتابان أول ما وصل إلينا في مجالهما، ثم توالى بعد ذلك ظهور الكتب الشاملة التي صنفها مؤلفوها في الترجمةِ لأعلام النحو واللغة ، يهمنا

منها كتاب "نزهة الألباء في طبقات الأدباء" لأبي البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري المعروف بالكمال (ت٥٧٧هـ)، وكتاب "إنباه الرواة على أنباه النحاة" لجمال الدين علي بن يوسف القِفطي(ت٦٤٦هـ)، و"بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة" لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ).

وفي وسع الباحث المنشغل بأخبار النحويين وطبقاتهم أن يجدَ مادةً خصبةً مبثوثةً في كتب التراجم عامةً كالفهرست لابن النديم (ت٣٨٠هـ) ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) ، وإرشاد الأريب في معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء لياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ)، ووفيات الأعيان لابن خلكان (ت٦٨١هـ) ، والمزهر للسيوطي (ت٩١١هـ) ، ولكننا سنقف في بحثنا هذا على كتب طبقات النحويين واللغويين السالفة الذكر .

وأول ما نلحظه على هذه الكتب أنها تبدو وثيقة الصلة بما سبقها من مصنفات في الحديث والفقه والشعر . . . إلخ ، فقد سبق المحدثون والفقهاء إلى التأليف في الطبقات ، إذ يذكر ابن النديم في الفهرست أن واصل بن عطاء (ت١٣٠هـ) قد ألف كتاب طبقات أهل العلم والجهل ، ثم ألف محمد بن عمر الواقدي (ت٢٠٧هـ) كتاب الطبقات الذي أداره حول الرسول ﷺ والصحابة والتابعين ، كما ألف معاصره الهيثم ابن عدي (ت٢٠٧هـ) كتاب طبقات الفقهاء والمحدثين ، وكتاب طبقات من روى عن الرسول ﷺ[٦].

غير أن هذه المؤلفات على أهميتها التاريخية لم تبلغ من الشهرة والتأثير ما بلغه كتابا الطبقات الكبرى لابن سعد (ت٢٣٠هـ) وطبقات فحول الشعراء لمحمد ابن سلام الجمحي (ت٢٣١هـ) ، فقد كان أثرهما كبيراً في فتح باب التأليف في طبقات شتى من الناس على نحو ما أشرنا سابقاً .

مصطلح الطبقـة:

والظاهر من كتاب ابن سعد أن الطبقة عنده هي الجماعة المتعاصرة زماناً ومكاناً، قل عددها أو كثر ، وأن ترتيب أعلام الطبقة الواحدة لا يعني بالضرورة أن العلـم السـابق أفضل من تاليه، وبعبارة أوضح فإن الاسم الأول في الطبقة لا يعني أنه مُقَدَّم على سواه من أفراد طبقته[٧].

وفي مقابل ذلك ترى ابن سلام قد قسم فحول الشعر في الجاهلية والإسلام إلى عشر طبقاتٍ على أساس من كثرة الشعر وجودته وتعدد أغراضه ، وقد جعل كل أربعةٍ معتدلين متكافئين في طبقة[٨]، ومعنى هذا أن الطبقة الأولى أشعر مـن الثانيـة ، لكـن تقديـم واحـد كامرئ القيس على أقرانه من شعراء طبقته ليس حكماً بالتقديم على مـن يليـه في طبقتـه، فهم جميعاً سواء ، إذ لا مناص من أن يبتدئ بأحد هؤلاء الأربعة فابتُدِئَ بـه غـير مقـدم على أصحابه [٩] .

وأما القاضي أبو الحسن ابن أبي يعلـى (ت٥٢٦هـ) فقـد نقـل في ثنايـا كتابـه طبقات الحنابلة عن العباس بن محمد أنه قد جعل كل عَلَـمٍ طبقـةً برأسـه ، فالفقـهاء عنده ستة نفر، وكل واحد منهم طبقة ، وكـذا الـرواة ، وأصحـاب الأخبـار والقصـاص والمفسرون وخزان العلم والحفاظ [١٠] .

وقد تحرر معظم المؤلفين في الطبقات من قبل ابن أبي يعلى ومن بعده من قيـود الطبقة التي رأيناها عند ابن سعد والجمحـي ، فتنـاولوا أعلامـهم في -الأغلـب الأعـم- حسب حروف الهجاء ، وقد انصـرف هـذا الأمـر أيضـاً علـى كتـب طبقـات النحويـين المتأخرة؛ مما يعني ببساطة أن دلالة مصطلح الطبقة قد خرج عن معناه الأصيل إلى معنى الأعلام ، فنحن لا نجد "طبقات" في نزهة الألباء، وإنباه الـرواة، وبغيـة الوعـاة ، بـل نجد أعلاماً مدونةً حسب التدرج التاريخي في نزهـة الألبـاء ، ومرتبـةً حسـب حـروف الهجاء في إنباه الرواة وبغية الوعاة بأسمائها الأصلية لا بما اشتهرت به من ألقاب، فلا

مكان لسيبويه في حرف السين ولا مكان للأخفش في حرف الخاء ولا للمبرد في حرف الميم ، بل مكان كل واحد منهم حسب اسمه الحقيقي.

إن هذا التحلل من قيد الطبقة من شأنه أن يدفعنا إلى القول بأن كتب طبقات النحويين المتأخرة هي كتب تراجم أعلام كالفهرست، ومعجم الأدباء، وتاريخ بغداد، ووفيات الأعيان. ولكنها تمتاز عنها في تخصصها بالترجمة لأعلام اللغة والنحو، ومن حام حول هذين العلمين من قريب أو حتى من بعيد[١١].

مصطلح المرتبة:

أما مصطلح "مرتبة" أو "مراتب" فالظاهر أن أبا الطيب اللغوي كان أول من أشاعه حين وسم به كتابه "مراتب النحويين" ، وقد كان إدخال هذا المصطلح موفقاً ، يدل على نزوع صاحبه إلى الاستقلالية والتفرد حين رأى ولع المؤلفين بمصطلح الطبقات، وكان مصطلح "المرتبة" موفقاً كذلك؛ إذ أتاح للمؤلف التحلل من قيد الطبقات الذي طالما برم به الناقدون [١٢] ، كما لم يلزم المؤلف بذكر أعلام النحو كافة على ما هو الحال في كتب الطبقات ، بل تراه أقام كتابه على ذكر مراتب العلماء ومنازلهم من العلم ، وحظهم من الرواية، وعقد الصلة بين الشيوخ وتلامذتهم في البصرة ثم الكوفة إلى أن انتهى العلم فيهما .

غير أننا إذا ما تركنا غلاف الكتاب وتوغلنا في صحفه بدا لنا المؤلف كأنه قد نسي مصطلح مرتبة ومراتب وأقبل على استخدام مصطلح طبقة وطبقات بمعنى الدرجة في العلم [١٣] ، وهذا ما يغري بالقول بأن مصطلح مرتبة مرادف لمعنى طبقة ، وقد جرى على ذلك غير باحث معاصر[١٤] .

موازنة بين كتب طبقات النحويين واللغويين :

اتضح لنا أن مصنفات "نزهة الألباء" و"إنباه الرواة" و"بغية الوعاة" لا تعدو كونها كتب تراجم أعلام ،وأن تسميتها بكتب الطبقات هو من باب التوسع ؛ ذلك أننا لا نرى فيها طبقات ولا مراتب ،بخلاف كتابي الزبيدي وأبي الطيب اللغوي، فكتاب الزبيدي مثال ممتاز لكتب الطبقات، وقد سار فيه مؤلفه على نهج فريد لم يسبقه فيه أحدٌ من المصنفين، ولا نهج نهجه أحدٌ ممن جاء من بعده [١٥] ؛ حيث أقام طبقاته على أساس من تلازم عنصري المكان والزمان فذكر طبقات النحويين البصريين ثم الكوفيين، ثم وقف على طبقات اللغويين البصريين فالكوفيين، ثم تناول طبقات النحويين واللغويين المصريين والقرويين والأندلسيين .

والطبقة عنده غير محددة العدد من الأعلام، وهي تساوي زمنياً جيلاً أو عشرين سنةً أو حتى عشر سنين أو أقل من ذلك، وكثيراً ما يجتمع في الطبقة الشيخ وتلاميذه وقد يتقدم ذكر المغمور منهم على المشهور [١٦] ، وقد عني الزبيدي -كعادة أصحاب الطبقات- بذكر سنة المولد والوفاة ،وحشا كتابه بمختلف الطرف والأخبار والحكايات عمن ترجم لهم منذ صدر الإسلام إلى شيخه أبي عبد الله الرياحي الأندلسي (ت٣٥٨هـ).

أما كتاب "مراتب النحويين" فقد ذكرنا أن مؤلفه قد أقامه على ذكر مراتب العلماء ومنازلهم من العلم وحظهم من الرواية، وكل ذلك مع تلازم عنصري الزمان والمكان وقد بدأ بذكر أعلام النحو واللغة في البصرة ، ثم أتبع ذلك بالكلام عن أعلام الكوفة، ثم ترجم لمن انتقل إلى بغداد من أعلام المِصْرَين ولكنه أنكر أن يكون قد ظهر في بغداد مذهب نحوي ، وقال صراحةً : (ولا علم للعرب إلا في هاتين المدينتين [١٧]...وأما بغداد فمدينة ملك وليس بمدينة عِلْم، وما بها من علم فمنقول إليها، ومجلوب للخلفاء وأتباعهم ورعيتهم) [١٨].

والكتابان وإن جاءا مختلفين منهجاً فإنهما متفقان في الموضوع والغاية ، ويعدان مصدرين أساسين في دراسة أعلام النحو وآرائهم وأخبارهم ، وهما إنما يحظيان بهذه الأهمية لجملة أسباب منها سبقهما التاريخي وحسن تصنيفهما وغزارة مادتهما التي عكست ثقافة مؤلفيهما الواسعة؛ لذا فهما أقدم كتابين شاملين في تاريخ أعلام النحو واللغة.

والناظر في الكتابين يلحظ أن مادتهما تعتمد على مصدرين أساسين :

الأول- الرواية الشفوية عن شيوخ المؤلفين ، فقد أكثر الزبيدي من الروايةِ عن شيخه أبي علي القالي ، كما أخذ عن أحمد بن سعيد الصدفي ، وقاسم بن إصبغ ، وأحمد بن حزم وسعيد بن فرحون ، وغيرهم من رجالات العلم والأدب في الأندلس ، ومادة هذه الروايات هي معظم كتاب الزبيدي، وأما أبو الطيب فقد أكثر من الرواية عن شيوخه خاصةً شيخه محمد بن يحيى الصولي، وأبا عمر الزاهد .

الآخر- النقل عن الكتب المشهورة كالأغاني وطبقات فحول الشعراء والكتاب لسيبويه وإصلاح المنطق لابن السكيت . . . إلخ .

وقد سار المؤلفان في روايتهما ونقلهما على طريقة المُحَدِّثين في الإسناد في النقل عن الثقات، وهذه سمة في التأليف لها أهميتها البالغة؛ لأن كتب طبقات النحويين المتأخرة لم تضف جديداً في أخبارها ورواياتها، ولم تعن بالأسانيد كثيراً ، يقول د.محمود فهمي حجازي في خاتمة كلامه عن كتب الطبقات : (وينبغي عند دراسة النحويين واللغويين والأخبار الواردة عنهم وعن التعرف على صحة نسبة مؤلفاتهم لهم أن يراعي الباحث الترتيب التاريخي المذكور لكتب الطبقات والتراجم ، فقد أثبتت الدراسة المقارنة لهذه الكتب أن اللاحق منها ينقل عن السابق نقلاً ولا يضيف جديداً ، والكتب المتأخرة لا تُعنى بالأسانيد مما يجعل من الصعب دراسة مصدر النص ورواته ، وإذا افترضنا صحة النقل في أكثر الكتب المتأخرة فلا جدوى من استخدامها إذا كانت

المصادر الأقدم متاحة للباحث الحديث ، والواجب العلمي يقتضي أن نستخدم أقدم المصادر ، فلا فائدة من النقل عمن نقل عن المصدر الأصلي) [١٩] .

وقد صيغ الكتابان بأسلوبٍ يتسم بالحياد والمنهج العلمي، وبلغة سهلة وجزلة تمتاز بالتوازن والاعتدال والوقار عند الزبيدي، ولكنها لا تخلو عند أبي الطيب من القسوة الواضحة بحيث تواجهك في المقدمة كلمات مثل الجُهّال والرُدّال، وإشارات عديدة توحي بأن كثيراً من أهل دهره قد بلغوا من الجهل مبلغاً بحيث لا يفرقون بين عالِم وعالِم، وتراه يستعيذ بالله مما لا يسرّ في الأعداء، ولا يفرح به في البعداء وذوي الشنآن والبغضاء [٢٠] ، يقول صراحةً: (واعلم -علمتَ الخيرَ ، وعملتَ به- أن أكثر آفات الناس الرؤساءُ الجهّال والصُّدور الضُّلال ، وهذه فتنة الناسِ على قديم الأيام ، وغابر الأزمان ، فكيف بعصرنا هذا، وقد وصلنا إلى كدَر الكَدَر ،وانتَهينا إلى عَكَر العَكَر! وأُخِذَ هذا العلمُ عمَّن لا يَعلم ولا يَفقه ولا يُحِسّ ولا يَتْقه [٢١] يُفهِّم الناسَ مالا يَفهَم، ويعلِّمهم عند نفسه وهو لا يَعلم، يقلِّد كلَّ عِلمٍ ويدَّعيه، ويَركب كلَّ إفكٍ ويَحكيه، يجهل ويرى نفسه عالما، ويعيبُ من كان من العيب سالما) [٢٢] .

وأكبر الظن -والله أعلم- أن جو حلب المشحون بالخصومة كان وراء هذه القسوة الفاشية ، فقد كانت حلب مشحونة بالخصومة العسكرية مع الروم وقائدهم الدمستق ، وكانت مشحونة بالخصومة الفكرية والشخصية بين أعلام أدبائها ، وهي خصومة لاحظنا خبرها فيما روي من أخبار عن أبي فراس والمتنبي، والمتنبي وابن خالويه، ابن خالويه وأبي الطيب اللغوي، وأكبر الظن -والله أعلم- أن قسوة أبي الطيب اللغوي في التعريض بالجهال في زمانه والضلال ، ودعاة العلم ربما كانت من تراكمات الخصومة التي احتدمت بينه وبين ابن خالويه الذي يصفه عادةً أنه نحوي ضعيف[٢٣].

وعلى أية حال فإن القسوة الواضحة الطاغية في ألفاظ مقدمته سرعان ماتتبدد لتحل محلها –على مدى صفحات طويلة– لغة تمتاز ألفاظها بالحبور والمحبة في كلامه المستفيض عن أعلام البصرة ، ثم لا نلبث أن نراه يسْلُقَ الكوفيين – في غير موضع– بلسان حادٍ كقوله في أبي جعفر الرؤاسي: (وهو مطروح العلم ليس بشيء) [٢٤] ، وكقوله في الكسائي (ت١٨٩هـ): (ولولا أن الكسائي دنا من الخلفاء فرفعوا من ذكره لم يكن شيئاً ، وعلمه مختلط بلا حُجج ولا علل إلا حكايات عن الأعراب مطروحةٌ، لأنه كان يلقنهم ما يريد ، وهو على ذلك أعلم الكوفيين بالعربية والقرآن، وهو قدوتهم وإليه يرجعون) [٢٥] ، وكقوله في حمزة الزيات الكوفي (ت١٥٦هـ) : (قال أبو حاتم وإنما أهل الكوفة يكابرون فيه ويباهتون ، فقد صيّره الجهال من الناس شيئاً عظيماً بالمكابرة والبهت، وقول ذوي اللحى العظام منهم "كانت الجن تقرأ على حمزة" . قال: والجن لم تقرأ على ابن مسعود والذين من بعده، فكيف خصّت حمزة بالقراءة عليه ! ، وكيف يكون رئيساً وهو لا يعرف الساكن من المتحرك ولا مواضع الوقف والاستئناف ولا مواضع القطع والوصل والهمز، وإنما يحسن مثل هذا أهل البصرة؛ لأنهم علماء قراء رؤساء)[٢٦]. وكقوله: (ولم يكن بالكوفة ولا في مصر من الأمصار مثل أصغرهم[٢٧] في العلم بالعربية ، ولو كان لافتخروا به، وباهوا بمكانهِ أهل البلدان ، وأفرطوا في إعظامه كما فعلوا بحمزة الزيات) [٢٨].

إن مما يبعث على الارتياح أننا لا نكاد نجد في كتب طبقات النحويين شيئاً من هذه القسوة والعصبية التي رأينا طرفاً منها عند أبي الطيب ، ولسنا نوافق جميل علوش في أن ابن الأنباري في نزهة الألباء قد خرج عن الحياد والمنهج العلمي في الموازنة بين النحاة إلى الانقياد لنزعته البصرية حين وصف أبا الخطاب الأخفش الأكبر (ت١٧٧هـ) بأنه كان من كبار علماء العربية ومتقدميها ، وأن الخليل بن أحمد (ت١٧٥هـ) كان الغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو ، وأن يونس بن حبيب (ت١٨٢هـ)

كان من أكابر النحويين ، لكن ابن الأنباري قلما يذكر مثل ذلك في معرض كلامه عن علماء الكوفة [٢٩]، ولسنا نرى رأيه كذلك في أن ابن الأنباري قد تحامل على الكسائي ووصفه بالمغفل[٣٠] حين نقل أقوال الكسائي نفسه حين قال (صليت بالرشيد فأعجبته قراءتي، فغلطت في كلمة ما غلط فيها صبي ، أردت أن أقرأ "لعلهم يرجعون" فقرأت "لعلهم يرجعين")[٣١] .

إن هذا الثناء على علماء البصرة وعلومهم ليس جديداً في الفكر اللغوي العربي، فقد سبق إليه محمد بن سلام الجمحي في مقدمة كتابه طبقات فحول الشعراء[٣٢]، وتابع المؤلفون نهجه ،ولا نرى تعصباً على الكسائي أو وصفاً له بالمغفل في غلطه بالقراءة، بل إن مكان هذا الغلط ليس في باب المغفلين والجهال ، ولكن مكانه المناسب في باب الهفوات في التحليل النفسي الفرويدي، أو زلات اللسان التي يمكن أن تلابس العقلاء والعلماء والرؤساء والملوك، وهي أبعد ما تكون عن مواقع الجهل والتغفل .

ورأينا أن كتب طبقات النحويين في جملتها تتسم بالحياد والمنهج العلمي، وبالأمانة العلمية في نقلها عن الروايات المسندة لكبار العلماء والرواة ، وهي في جملتها كنوز معتمدة في الحديث عن مظاهر الاتفاق والاختلاف بين البصريين والكوفيين ، ومكانة العلماء لدى الخلفاء ورجال الحكم، وتقوى العلماء وتواضعهم ، والموازنة بينهم، ولطائفهم النحوية، وطرائفهم البلاغية، وقراءاتهم وغير ذلك.

ومن خصائصها غلبت الطابع الإخباري عليها، شأنها في ذلك، شأن كتب الطبقات عامة، ولكن هذه الغلبة لا تعني أن شخصيات مؤلفيها قد اختفت وراء الروايات بل طالما رأيناهم يبدون وجهة نظرٍ في الفصل في خلافٍ ما، وحسبك أن ترى موقفهم في الخلاف حول أول من وضع النحو العربي. فقد ترددت بين العلماء روايات تختلف في تحديد أول من وضع النحو العربي وهم يشيرون إلى الإمام على كرم الله وجهه، وإلى أبي الأسود الدؤلي، وعبد الرحمن بن هرمز ، وميمون الأقرن ، ولكن

الزبيدي وأبا الطيب والسيوطي يشيرون إلى ريادة أبي الأسود في هذا المجال، وأما ابن الأنباري فيقول: (فأما زعم من زعم أن أول من وضع النحو عبدالرحمن بن هرمز الأعرج فليس بصحيح ، بل عبدالرحمن بن هرمز أخذ النحو عن أبي الأسود، وكذلك نصر بن عاصم أخذه عن أبي الأسود ،ويقال عن ميمون الأقرن،والصحيح أن أول من وضع النحو علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)؛لأن الروايات كلها تسند إلى أبي الأسود،وأبو الأسود يسنده إلى علي)[٣٣] .

وفي وسع القارئ أن يضع يده على آراء كثيرة تبرز شخصية المؤلفين على الرغم من كثافة الرواية التي تغطي معظم كتبهم ، وهذه مسألة تنقلنا إلى سمة الأصالة في كتب طبقات النحويين ، والأمر الجلي هنا أن كتابي الزبيدي وأبي الطيب -على وجه التحديد- يتسمان بسمة الأصالة: فهما أول كتابين شاملين في أعلام النحو قاما على عنصري الزمان والمكان ، وقد سبق لنا أن ذكرنا أن الزبيدي نهج في كتابه نهجاً لم يسبقه أحدٌ من النحويين ولم يأتِ بمثله أحد ممن جاء من بعده من النحويين الأقدمين، وأما مراتب النحويين فقد جاء جديداً غير مسبوق في عنوانه، وفي اختياراته لأعلامه، فليس كل علمٍ يستحق عنده أن يذكره، إذ القياس عنده شهرة العالم بمصنفاته والرواية عنه[٣٤] وكل عالمٍ لم تذع شهرته ولم يروَ عنه فهو ليس أهلاً للترجمة.

على أن هذه الأصالة الواضحة في الكتابين المذكورين لا يجب أن تصرفنا عن التأكيد أن المؤلفين قد تأثرا بوضوح بمن سبقهما خاصةً ابن سعد في الطبقات الكبرى وابن سلام في طبقات فحول الشعراء ، فقد حاول الزبيدي مجاراة ابن سلام في عدد الطبقات، إذ جعل البصريين في عشر طبقات، ولكنه لم يتمكن من أن يصرف الأمر على الكوفيين لتأخرهم في الظهور وقلة عددهم فجعلهم في ست طبقات ، وتابعه كذلك في أن الاسم الأول في الطبقة لا يعني بالضرورة أنه أشهرهم ، وفي مقابل ذلك تابع الزبيدي ابن سعد في مفهوم الطبقة، وعددها، وفي وضع طبقاته على أساس من عنصري

الزمان والمكان، فالطبقة عند الزبيدي مثلها كمثل الطبقة عند ابن سعد فهي تعني الجماعة المتعاصرة في مكان محدد قلَّ عددها أو كثر .

وأما أبو الطيب فقد تأثر بوضوح بابن سلام في موضعين: الأول- مفهوم الطبقة، فقد ذكرنا سابقاً أنه ترك مصطلح "المراتب" على الغلاف وانشغل في ثنايا كتابه برديفه مصطلح "طبقة" بمعنى الجودة والمنزلة ، وهو قريب من مفهوم ابن سلام ، قال أبو الطيب مثلاً: (فالواحد من هؤلاء[٣٥] في طبقة من الجهل لا تدرك بالقياس)[٣٦] وقال : (وفي طبقته [٣٧]من الكوفيين أبو البلاد وهو من أرواهم وأعلمهم)[٣٨]. وقال : ودون هذه الطبقة التي ذكرنا جماعةٌ منهم أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الله ابن أخي الأصمعي)[٣٩]...إلخ .

والموضع الآخر أننا ذكرنا قبل قليل أن أبا الطيب قد اكتفى بذكر مشاهير الأعلام، وهو في ذلك يوافق ابن سلام الذي لم يذكر كل المشهورين من الشعراء بل اختار عدداً منهم فقال :(.... ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام ، والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام ، فنزلناهم منازلهم واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا من حجة ،وما قال فيه العلماء. . . فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعراً[٤٠] .

وقد بدا تأثر الزبيدي وأبي الطيب بابن سعد وابن سلام في اعتمادهما على الرواية الشفوية والنقل عن الأئمة ، على أن هذا التأثر لا يُضعف من أصالة كتابيهما، فهو أمر شكلي.

وكذلك لا يقلل من قيمتهما ما قد نلاحظه من مآخذ عليهما، فهما كتابان رائدان، وكانا مصدرين مهمين أُخذت عنهما كتب طبقات النحويين المتأخرة ، كما أخذت عنهما كتب التراجم العامة كتاريخ بغداد ومعجم الأدباء ... إلخ. فمما يؤخذ على كتاب الزبيدي إقامته الطبقة على التعاصر في مكان ومذهب دون أن يقدم الشيخ على تلاميذه

أو المشهور على المغمور ، ثم إن محاولته تكثير طبقات الكوفيين لتقترب من عدد طبقات البصريين قد دفعه إلى جعل الكسائي وحده في الطبقة الثانية ، وإفراد ثعلب في الطبقة الخامسة ، وفي ذلك ظلمٌ- ليس عن قصد -للبصريين الذين حشرهم حشراً في طبقاتهم ، فالطبقة البصرية السادسة تتألف من عشرة أعلام سيبويه ثالثهم .

ثم إن تقسيمه الطبقات على أساس زمني لا يبدو دقيقاً أو موفقاً ؛ ذلك أن الفاصل الزمني الضيق بين وفيات الأعلام لا يجعل من السهل فصلهم في طبقات مختلفة، فقد كانت وفاة الخليل مثلاً في سنة (١٧٥هـ) ، ووفاة سيبويه في سنة (١٨٠هـ) أي في زمن متقارب جداً ، ومع ذلك ترى الخليل في الطبقة الخامسة، وسيبويه في الطبقة السادسة.

وعلى العموم فإن مصطلح الطبقة ربما يكون أنسب لأصحاب الحديث والفقه في التفريق بين المحدثين الثقات العدول ومن يُطعن في روايتهم، لكنه لا يبدو موفقاً عند الزبيدي في إقامته على عنصر الزمن الضيق جداً ، وربما كان أقرب إلى الدقة العلمية لو أنه وفّق بين عنصري الزمن والمشيخة ، كأن يقول مثلاً: هذه طبقة الخليل وتلاميذه، وهذه طبقة المبرد وتلاميذه ، وهذه طبقة الكسائي وتلاميذه ، وهذه طبقة الفراء وتلاميذه إلخ، وهذا ما سار عليه أبو الطيب اللغوي، حيث اتخذ من النسب العلمي معياراً في تراجم كتابه.

ومما يؤخذ على الزبيدي أيضاً أنه أطال الكلام كثيراً عن أصحاب الطبقات المتقدمة، لكنه في طبقاته المتأخرة بدا كأنه أصابه الإعياء فلم يقل إلا القليل، بل تراه في كلامه عن طبقات اللغويين البصريين ثم الكوفيين لا يذكر شيئاً في بعض الأحيان سوى الأسماء، والطبقة الأولى من اللغويين البصريين مثال واضح على ما نقول[٤١].

على أن هذه الظاهرة ليست وقفاً على الزبيدي ، فهي فاشيةٌ في كتب الطبقات عامةً، خذ مثلاً على ذلك طبقات ابن سعد ، فقد أطال الكلام كثيراً جداً عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، كما أطال كثيراً في كلامه عن الصحابة وكبار التابعين الذين شغلوا الطبقات الأولى من كتابه الضخم ، غير أن تراجمه للطبقات التالية أخذت تتضاءل وتقل قيمتها[٤٢] ، ويمكن أن يقال مثل ذلك عن طبقات فحول الشعراء، فقد شغلت الطبقات الأولى حيزاً واسعاً في الكتاب ،غير أن الطبقات الأخيرة قلت صفحاتها كثيراً، فقد غطت الطبقة السابعة من فحول شعراء الجاهليةِ مثلاً أربع صفحات فقط[٤٣].

أما ما يؤخذ على أبي الطيب في مراتب النحويين فإنه وإن كان قد تقيد بدقة بعنصر الزمان ، فإن عنصر المكان قد جاء مرتبكاً جداً فتراه يذكر نفراً من أعلام الكوفة في ثنايا كلامه عن علماء البصرة ، فقد تناول أبا جعفر الرؤاسي ، وحمزة الزيات بين جمهرة البصريين[٤٤] ، كما تناول الجرمي ، وأبا عثمان المازني ، وأبا حاتم السجستاني والمبرد ومن أخذ عنه في معرض كلامه عن أعلام الكوفة[٤٥] ، وكل ذلك ليس جهلاً من أبي الطيب بقدر ما كان تقيداً دقيقاً بالتدرج التاريخي حتى لو كان على حساب المكان، وهي سمة منهجية تحمد له.

ومما يؤخذ على مراتب النحويين كذلك أن أبا الطيب قد ألزم نفسه بذكر المشهورين من علماء النحو واللغة فقط ، إذ يقول: (وما أخللنا بذكر أحدٍ إلا لسبب ؛ إما لأنه ليس بإمام ولا معول عليه ، وإما لأنه لم يخرج من تلامذته أحد يُحيي ذكره ، ولا من تأليفه شيءٌ يلزم الناسَ نشرهُ ،كإمساكنا عن ذكر اليزيديين[٤٦] ،وهم بيت علمٍ ، وكلهم يرجعون إلى جدهم أبي محمد يحيى بن المبارك اليزيدي ، وهو في طبقة أبي زيد والأصمعي وأبي عبيدة ...إلا أن علمه قليل في أيدي الرواة إلا أهل بيته وذريته ، وهو ثقة أمين مقدم مكين)[٤٧]. وقال في موضع سابق: (فهذا جمهور ما مضى عليه علماء البصرة ، وفي خلال هؤلاء قومٌ علماء لم نذكرهم؛ لأنهم لم يُشتهروا ، ولم يؤخذ عنهم ، وإنما شهرة العالم بمصنفاته والرواية عنه) [٤٨] . ثم تراه مباشرةً يتكلم عن رجلٍ يعرف بالناشي[٤٩] ، أخذ عن سيبويه والأخفش[٥٠] ووضع كتباً في النحو، ومات قبل أن

يستتمها وتؤخذ عنه[٥١] فأنت ترى أن الناشي لم يستوفِ شروط الترجمة عند أبي الطيب ومع ذلك ذكره، ولم يشر إلى عالم مشهور مثل معاذ الهراء (ت١٨٧هـ)،وهو عند الزبيدي من أعلام الطبقة الكوفية الأولى في النحو.

أثرهما في مؤلفي العصر الحديث:

وقد امتد أثرهما إلى كتاب العصر الحديث من عجم وعرب ، فقد خصص المستشرق الألماني كارل بروكلمان معظم الجزء الثاني من كتابه تاريخ الأدب العربي لأعلام اللغة والنحو[٥٢] الذي استمد مادته من كتب طبقات النحويين عامةً ، ومن كتابي الزبيدي وأبي الطيب خاصةً ،ومن كتب التراجم كالفهرست وتاريخ بغداد ومعجم الأدباء. وقد رتب أعلامه على أساسٍ من عنصري الزمان والمكان ، فتناول علماء البصرة، فالكوفة ، فبغداد ،فسائر الأمصار الإسلامية ،وذكر الكتب التي ألفها كل واحد منهم ، ومخطوطاتهم ، ومكان وجودها ، وأرقامها ، وذكر طبعاتها إن كانت قد طبعت ، ثم جاء العالم التركي فؤاد سزكين –في كتابه تاريخ التراث العربي– فذكر مخطوطاتٍ أكثر من المخطوطات التي ذكرها بروكلمان ، ولكن هذا الأخير يظل أقل تأثراً من سلفه بروكلمان بكتب طبقات النحويين؛ لأن كتابه ليس أكثر من إكمالٍ لكتاب بروكلمان .

أما عند العرب المحدثين والمعاصرين فقد كان تأثير كتب طبقات النحويين واللغويين عامة قوياً ، إذ تفاعل الباحثون العرب معها ، وصنفوا في ذلك من الكتب عدداً طيباً ، جميعها ذات صلة قوية بها ، ومن أشهر هذه الكتب ما يلي:

١–نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ، للشيخ محمد طنطاوي ، ١٩٣٨م .

٢–مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ، للدكتور مهدي المخزومي ١٩٥٨م [٥٣].

٣–مدرسة البصرة النحوية نشأتها وتطورها ، للدكتور عبد الرحمن السيد١٩٦٨م[٥٤].

٤–المدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف ١٩٦٨م.

٥-تطور الدرس النحوي ، للدكتور حسن عون ١٩٧٠م .

٦-المدارس النحوية أسطورة وواقع للدكتور إبراهيم السامرائي ١٩٨٧م .

٧-الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي ، د. عبد العال سالم مكرم ١٩٩٠م.

٨-من تاريخ النحو العربي، دراسة ونصوص، د. حلمي خليل ١٩٩٢م .

وإلى جانب هذه الكتب فثمة عشرات من المؤلفات التي تناولت علماً من أعلام النحو كأبي إسحاق الحضرمي ، والخليل ، وسيبويه ، والفراء ، والمبرد ، وثعلب ، وابن الأنباري . . . إلخ ، وكلها ذات صلة قوية بكتب طبقات النحويين واللغويين.

إعادة النظر في هيكل الطبقات :

والملاحظ على الكتب الحديثة والمعاصرة أنها في جملتها أعادت النظر في هيكل الطبقات ، فطبقات البصريين سبع عند الشيخ محمد طنطاوي[٥٥] ، وطبقات الكوفيين خمس[٥٦] ،فتراه يبدأ بأبي الأسود الدؤلي منفرداً دون أن ينسبه لأحد، ثم يأخذ في سرد طبقات البصريين على النحو الآتي: الطبقة الأولى وشملت عنده نصر وعنبسة وابن هرمز ويحيى، والطبقة الثانية وجاء فيها عبد الله بن أبي اسحق وعيسى بن عمر وأبو عمرو ابن العلاء، والطبقة الثالثة وأدرج فيها الأخفش الأكبر والخليل ويونس، والطبقة الرابعة وضمنها سيبويه واليزيدي وأبا زيد، والطبقة الخامسة وفيها علَمان: الأخفش وقطرب، والطبقة السادسة وحوت الجرمي والمازني والرياشي، والطبقة السابعة واختصت بالمبرد.

أما طبقات الكوفيين الخمس فأوردها على النحو الآتي:الطبقة الأولى وتخصصت بالرؤاسي والهراء، والطبقة الثانية واقتصرت على الكسائي، والطبقة الثالثة وجمعت بين الأحمر والفراء واللحياني، والطبقة الرابعة وضمت ابن سعدان والطوال وابن السكيت، والطبقة الخامسة وعلمها ثعلب فقط.

أما مهدي المخزومي فقد كان أكثر ثورةً على هيكلية الطبقات ، فأبو الأسود والطبقة التي تلته[٥٧] ليسوا عنده نحويين ، وكل ما فعلوه أنهم قاموا بأعمال قرآنية

فسرت بأنها أعمال نحوية[٥٨]، وأن التأريخ للنحو عنده فيبدأ بعبدالله بن أبي اسحق الحضرمي (ت١٧٠هـ)، وأبي عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ) (لأنها الطبقة التي قامت الدلائل على أن رجالها كانوا يتناولون بالدرس مسائل نحوية، وإن كان نحوهم لا ينتظم أبواب النحو ومسائله) [٥٩] ، والخليل بن أحمد جدير في رأيه بأن يوضع في طبقة مستقلة ، لأن تاريخ النحو لم يشهد أحداً ممن عاصره يمكن أن يوضع في طبقته [٦٠]، أما إذا أردنا أن نؤرخ لمدرسة الكوفة فينبغي أن نؤرخ للكسائي؛ لأنه هو النحوي الأول الذي رسم للكوفيين رسوماً يعملون عليها [٦١] ،أما معاذ الهراء والرؤاسي علما الطبقة الأولى عند الزبيدي فإن مهدي المخزومي لا يرى أولهما نحوياً ألبتة؛ لأن النحاة لم يذكروا له مصنفاً في النحو ، وكل ما هنالك أنه كان يؤدب أولاد عبد الملك بن مروان ، وليس في تأديبه إياهم ما يشعر أنه من النحاة[٦٢]، وأما الرؤاسي فإن البصرة هي مصدر دراسته ، فقد درس على عيسى بن عمر أستاذ الخليل وسيبويه[٦٣] ، ومعنى ذلك أنه ليس بكوفي .

وأما إبراهيم السامرائي فقد ذهب إلى إقصاء الكسائي من دار النحو والنحويين إذ يقول في رد واضح على كلام مهدي المخزومي: (ليس لنا من نحو الكسائي شيء كثير، بل نجد من ذلك شذرات في كتب النحو القديم ، وهي في جملتها لا تؤلف شيئاً ولا يمكن أن تكون مادةً يقوم عليها بناء نحوي في أصوله وفروعه ، فكيف يحق لنا أن نقول : إنه بداية مدرسة نحوية !) [٦٤] .

وفي وسع الباحث المستقصي أن يجد في كتب المحدثين والمعاصرين من العرب ملاحظات غير قليلة على هيكل طبقات النحويين من مثل مقالة شوقي ضيف في صدر كتابه المدارس النحوية (وقد تقدم البحث فيها[٦٥] بتصحيح خطأ شاع وذاع قديماً ، وهو ما ينسب إلى أبي الأسود الدؤلي وتلاميذه من وضع بعض مبادئ النحو ، وهي إنما بدأت توضع مع الجيل التالي مع أبي اسحق الحضرمي) [٦٦] .

وربما يكون أدنى إلى الصواب أن نقول إن شجرة أعلام النحو العربي لها جذع طويل يشمل في رأينا طبقات الزبيدي الأربع الأول التي تبدأ بأبي الأسود الدؤلي مروراً بتلاميذه وبالحضرمي ، وأبي عمرو بن العلاء وانتهاءً بعيسى بن عمر ، فهؤلاء جميعاً كانوا أساتذةً للأجيال التالية التي تفرقت فيما بعد بين البصرة والكوفة وتباين تعاملها مع أصول النحو العربي ،وكذلك مصطلحاته ،ولهذا السبب ترانا نميل إلى أن الخليل هو رأس الطبقة البصرية الأولى، والكسائي رأس الطبقة الكوفية الأولى،وإن كان ميزان الخليل يرجح كثيراً على الكسائي.

ومن المفيد أن نعلم أن جدل الباحثين حول هيكل الطبقات كان قصراً على أعلام البصريين والكوفيين ،أما أعلام طبقات الأمصار الأخرى فقلما تجد للباحثين نقاشاً حولهم.

على أن التعليل لقصْر الجدل على الكوفيين والبصريين في هذه المسألة يعود في نظرنا إلى أنهما يشكلان بداية النظر النحوي في تأسيس النظرية النحوية وما دار فيها من خلاف بينهما، وعلى أية حال فإن للكلام بقيةً بل بقايا سنتناولها في أثناء نظرنا في القضايا الأخرى التي أثارتها كتب طبقات النحويين في مباحث المؤلفين المحدثين والمعاصرين ، وأهمها -في رأينا- ثلاث هي:

١-التشكيك في ريادة أبي الأسود الدؤلي.

٢-أصالة النحو العربي .

٣-طبقات النحويين والمدارس النحوية .

أ-التشكيك في ريادة أبي الأسود الدؤلي:

قال محمد بن سلام الجمحي في مقدمة طبقاته: (وكان أول من أسس العربية وفتح بابها ، وأنهجَ سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي . . . وإنما قال ذلك حين

اضطرب كلام العرب . . . فوضع باب الفاعل والمفعول به ، والمضاف، وحروف الرفع والنصب والجر والجزم) [٦٧].

وقد وجدت هذه الكلمة سبيلها إلى كتب طبقات النحويين واللغويين ، إذ اعتبر الزبيدي وأبو الطيب أن أبا الأسود هو الواضع الأول لعلم النحو [٦٨] ، وقد تابعهما غير واحد من المحدثين كالشيخ محمد طنطاوي[٦٩] ، وعبد الرحمن السيد [٧٠] ، وعبد العال سالم مكرم [٧١] .

غير أننا في سياق كلامنا على هيكل الطبقات أشرنا إلى إنكار المخزومي أن يكون أبو الأسود وتلاميذه ذوي صلة بعلم النحو ، ونقلنا مقالة شوقي ضيف في مقدمة المدارس النحوية من أنه صحح خطأً شاع قديماً وحديثاً وهو ما ينسب إلى أبي الأسود ، وقلنا إن للكلام بقية أو بقايا ، ومن هذه البقايا التي حان الكلام عليها أن غير باحث من المستشرقين والعرب قد شكك في أن يكون أبو الأسود هو الواضع الأول للنحو العربي إذ يرى يوهان فك أن الروايات العربية المتضاربة التي تقرن أوائل النحو العربي بأبي الأسود الدؤلي غير تاريخية بالمعنى الصحيح[٧٢]، ويذهب بروكلمان إلى مثل ذلك بقوله: (أما تعيين أول من وَجَّه العرب إلى الاشتغال بالبحوث اللغوية ، فهذا أمرٌ لا يزال غامضاً بعدُ، وما يروى عن تلاميذ أبي الأسود المزعومين فهو أمرٌ غير أكيد أيضاً مثل علاقات أبي الأسود نفسه بهذه الدراسات) [٧٣]، كما اعتبر أن أوائل علم اللغة العربية ستبقى محوطةً بالغموض والظلام ، وأن دراسات أبي الأسود وتلاميذه تعد من قبيل الأساطير [٧٤]، وأن التاريخ الصحيح لنشأة علم النحو يبدأ مع طبقة أساتذة الخليل وسيبويه ، وهم عيسى بن عمر ، وأبو عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب[٧٥] .

وفي هذا السياق نرى –من الباحثين العرب– إبراهيم مصطفى وحلمي خليل ينظران بشيء من الشك إلى أن يكون العرب في زمن الدؤلي المبكر قد انشغلوا بالنحو على الوجه الذي نراه في كتب العربية وبوضعهم القواعد والأصول النظرية العقلية بهذه

الدرجة الناضجة التي أشار إليها الرواة على يد أبي الأسود الدؤلي، حين قالوا إنه وضع أبواباً في النحو كالفاعل والمفعول والمضاف [٧٦]، وخلاصة القول عند أحمد مختار عمر وحسن عون أن بدايات العلوم يكتنفها الغموض عادةً لقصور الرواية التاريخية[٧٧] .

إن تعقيبنا على هذه القضية يبدأ من حيث انتهينا، فالغموض الكثيف يكتنف بدايات العلوم عامةً في القديم والحديث، ثم إن الروايات العربية المتناقضة حول نشأة النحو العربي تزيد الأمر تعقيداً وبلبلة، وفي مقابل ذلك فإن تشكيك المحدثين في ريادة أبي الأسود لا يحل المشكلة باعتبارهم أن التاريخ الحقيقي لنشأة النحو العربي يبدأ مع جيل أساتذة الخليل وسيبويه، ذلك أن هذا الجيل لم ينشأ علمياً من فراغ ، بل لابد من تضافر جهود سابقة قام بها المتقدمون زمنياً حتى تراكمت هذه الجهود وتبلورت في ثقافة جيل العلماء من أساتذة الخليل وسيبويه ، ومن ثم فإن إقصاء أبي الأسود وتلاميذه من مرحلة البدايات الأولى من نشأة النحو العربي يفضي إلى فراغ غير مقبول من الوجهة العلمية في تاريخ النحو العربي.

إن مَثل أبي الأسود في تاريخ النحو العربي- هو في رأينا- كمثل المهلهل في تاريخ الشعر العربي ، فالشائع أن المهلهل هو أول من هلهل الشعر ، ثم اطرد تطور نظم القصيدة العربية إلى أن وصل من الجودة إلى درجة المعلقات ، وصنيع أبي الأسود في النحو العربي بدأ بسيطاً ثم جعل يتعاظم على يد تلاميذه ومن تبعهم حتى وصل في شموله إلى درجة الأستاذية على يد الخليل وأساتذته .

وقد نبه بعض المعاصرين إلى هذه الحقيقة ، فأشار عبد الرحمن السيد إلى أن أبا الأسود الدؤلي هو مؤسس علم النحو وواضع أول حجر في صرحه[٧٨] ، ثم قال: (إن هذا القول لا يعني أنه وضع علماً كاملاً ناضجاً وأنه بحث فروعه ، ونوَّع مسائله ، وأطلق مصطلحاته ، إنما نقصد أنه فكر في وضع قواعد عامة ، يمكن أن تحفظ على

اللغة سلامتها ، ويمكن أن تؤدي ثمرتها ، وأن تؤدي الغرض منها في الفترة التي وقعت فيها[٧٩] .

إن الجدل الذي احتدم بين المحدثين حول أبي الأسود وريادته هو وتلاميذه كان ذا فائدة كبيرة في حركة البحث العلمي ، فقد دفع عبد العال سالم مكرم إلى تصنيف كتاب بعنوان "الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي" وقد سخره في بيان أثر أبي الأسود وتلاميذه وتابعيهم في النحو العربي[٨٠] . وقد قصد من ذلك كله أن يؤكد ريادة أبي الأسود في تاريخ النحو العربي وفضل تلاميذه ، وأنهم لا يشكلون مرحلة الخلاء في تاريخ النحو العربي وأن تاريخ النحو العربي يبدأ بهم لا بجيل أساتذة الخليل وسيبويه ، إن الخليل وسيبويه يشكلان –في نظرنا– بداية مرحلة نضج النظرية النحوية التي أحكم المصريون قواعدها.

ب–أصالة النحو العربي :

قد انتهينا آنفاً إلى ما يشبه الاتفاق العرفي لا العلمي القاضي بأن أبا الأسود الدؤلي هو أول من فكر في وضع قواعد نحوية تحفظ سلامة اللغة ، ولك أن تقول مقالة ابن الأنباري والقفطي إنّ علياً –كرم الله وجهه– هو واضع هذا العلم [٨١]، أو أن تقول مقالة المعاصرين بأن تاريخ النحو العربي يبدأ مع ابن أبي اسحق الحضرمي ، أو مع جيل أساتذة الخليل ، قل ما بدا لك في هذا الشأن، لكن السؤال الآن هل بدأ علم النحو عربياً خالصاً أم بفعل مؤثرات أجنبية ؟

إن المستشرقين على خلافٍ في هذه المسألة، وكذلك حال الباحثين العرب، فنجد فون كريمر يذهب إلى أن النحو العربي من وضع الأجانب الآراميين والفرس(أوجدته الحاجة التي أحس بها هؤلاء الأجانب لتعلم الكتابة العربية، وقراءة اللغة العربية على وجه صحيح ، وعلى الأخص غير العرب الذين أرادوا أن يقفوا حياتهم للدراسات العلمية)[٨٢]، وذهب بروكلمان إلى أن بدايات علم النحو يكتنفها

الغموض، حين قال: (ومن ثم لا يمكن إصدار حكم قطعي مبني على مصادر ثابتة للحسم برأي في إمكان تأثر علماء اللغة الأولين بنماذج أجنبية)[٨٣]، أما ليتمان ودي بور وفايل، فقد كان اتفاقهم على أن النحو العربي هو أثر رائع من آثار العقل العربي بما له من دقة في الملاحظة ومن نشاطٍ في جمع ما تفرق ، ويحق للعرب أن يفخروا به ، ولكن لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان في بلاد العراق تعلموا شيئاً من النحو [٨٤] .

أما المؤلفون العرب فقد ذهب جرجي زيدان إلى أن واضع النحو العربي هو أبو الأسود الدؤلي ويحتمل أن يكون قد تأثر في وضعه بالسريان ، كما يحتمل أن يكون قد تأثر بهم في وضع الحركات الإعرابية [٨٥] أما أحمد أمين فيرى أن تأثير السريان واليونان في العصر الأول في النحو العربي ضئيلٌ، ولكن عندما نقلت الفلسفة اليونانية إلى العرب تأثر النحو بها في قواعده وعلله[٨٦].

ويذهب علي أبو المكارم إلى شيء قريب من أحمد أمين فيرى أن النحو العربي في مرحلته الأولى التي تنتهي بالخليل كان عربي النشأة فقد تجرد الإنتاج النحوي فيها من التأثر بمؤثرات أجنبية ، وهذا القول لا يستلزم نفي اتصال النحاة أنفسهم بالتراث اليوناني[٨٧] ، أما في المرحلة الثانية التي تبدأ بتلاميذ الخليل وتنتهي بالزجاج فقد تأثر النحويون العرب بالفكر الإغريقي،وهذا أمر ملحوظ في كثير من الجزئيات النحوية، وبخاصة في مجال التقسيمات [٨٨]، وقد هيمن المنطق الإغريقي على الإبداع النحوي العربي في المرحلة الثالثة التي تبدأ بابن السراج وتمتد عبر القرون التالية حتى العصر الحديث[٨٩].

وفي مقابل ذلك ترى محمد طنطاوي وعبد الرحمن السيد ومهدي المخزومي يجمعون بقوة على أن النحو العربي نشأ أول ما نشأ علماً عربيّاً خالصاً، ثم تدرج به التطور حتى كملت أبوابه ، وهو غير مقتبس من لغة أخرى، لا في نشأته ، ولا في تدرجه . وتراهم يسفهون بقسوة رأي من قال بتأثر النحو العربي في نشأته بمؤثرات أجنبية سريانية أو يونانية أو هندية[٩٠].

إننا نرى أن موضوع هذه القضية هو الكلام عن أصالة النحو العربي ليس عبر القرون بل في نشأته ، وبالتالي فإن كانت نشأته الأولى على يد علي -كرم الله وجهه- أو على يد أبي الأسود الدولي فإن من الصعب القول بتأثر النحو العربي في نشأته بمؤثرات أجنبية ؛ ذلك أن الاحتكاك الثقافي لم يكن قد بدأ يؤتي ثماره في ذلك الزمن المبكر جداً من تاريخ الإسلام ، ثم إن احتجاج القائلين بالتأثر بوجود شبه واضح بين العربية والسريانية -وهي فرع من الآرامية- في تقسيم الكلام إلى اسم وفعل ورابطة ، وفي علامات الإعراب ، وتذكير الاسم وتأنيثه وتعريفة وتنكيره . . . إلخ- لا يعني بالضرورة تأثر العرب بالنحو بالسرياني؛ لأن العرب والسريان ينتمون إلى أسرة واحدة هي السامية التي تلتقي لغاتها في كثير من الخصائص، وهذا الالتقاء لا يعني بالضرورة أن إحدى اللغات السامية قد أثرت في خصائص أختها .

أما إذا كان تاريخ النحو العربي يبدأ بأساتذة الخليل ، أي بالنصف الأول القرن الثاني الهجري ، أو بالخليل وتلاميذه أي نهاية القرن الثاني ، فإننا نظن أن ثمة فرصة زمنيةً كافية لأن تؤثر الثقافات الأجنبية في الثقافة العربية عامةً ، إذ المعروف أن هذه الحقبة قد شهدت ازدهاراً عظيماً في حركة الترجمة في شتى العلوم ، وبالتالي فإننا قد لا نستبعد أن يكون التراجمة السريان قد نقلوا أو شرحوا شيئاً من نحوهم إلى علماء العرب الذين كانوا منهمكين آنذاك في وضع القواعد النحوية التي تحفظ سلامة العربية .

ت-طبقات النحويين ومدارس النحو العربي :

قد رأينا الزبيدي في طبقاته يترجم لنحاة البصرة فالكوفة، ولم نره يقف على النحو والنحاة في بغداد ، بل انتقل للكلام عن النحويين واللغويين المصريين ، فالقرويين، فالأندلسيين، ورأينا أبا الطيب اللغوي يترجم لمشاهير أعلام النحو واللغة في البصرة والكوفة وينتهي إلى أنه لا عِلْمَ للعرب إلا في هاتين المدينتين ، فلا علم للنحو في

المدينة المنورة أو مكة أو بغداد [٩١]، وقد قسم ابن النديم النحاة إلى ثلاثة هم: البصريون والكوفيون ومن مزج المذهبين من علماء بغداد[٩٢].

وفي عصرنا الحاضر احتفظ بروكلمان بهذا التقسيم مُطْلِقاً مصطلح مدرسة على أصحاب كل مذهب[٩٣]، ومنذ ذلك التاريخ أقبل المؤلفون على هذا المصطلح وجعلوه عنواناً لمؤلفاتهم ، كمدرسة الكوفة ، ومدرسة البصرة ، والمدراس النحوية . . . إلخ .

و"المدرسة" مصطلح فضفاض ينسب إليه الأشخاص والأماكن والأفكار ، وقد فشا في أيامنا الحاضرة وطغى على مصطلح "مذهب" التقليدي[٩٤]، وهو يعني فيما نحن بصدده (وجود جماعة من النحاة يصل بينهم رباط من وحدة الفكر والمنهج في دراسة النحو، ولا بد أن يكون هناك الرائد الذي يرسم الخطة ويحدد المنهج، والتابعون أو المريدون الذين يقتفون خطاه ، ويثبتون منهجه ويعملون على تطويره والدفاع عنه)[٩٥]، وليس يفترض في أتباع المدرسة الواحدة أن يجمعهم مكان واحد، بل المعيار الوحيد لأحقيتهم بالانتساب إلى مدرسة ما هو اشتراكهم في خط فكري معين[٩٦].

إن مهمتنا هنا ليست الموازنة بين مصطلحي "المدرسة" و"المذهب" بل أن نتحرى أمرين مهمين: الأول- بيان ما إذا كان أصحاب طبقات النحو في تنظيمهم مصنفاتهم يصدرون عن وعي بوجود مذاهب نحوية أو قل مدارس نحوية، والآخر- بيان موقف الباحثين المعاصرين من مراكز إبداع الفكر النحوي في الأمصار الإسلامية ، ومدى أهليتها لأن توصف بأنها مدارس نحوية.

أما فيما يتعلق بالأمر الأول فإننا نرجح أن الزبيدي وأبا الطيب كانا يصدران عن وعي تام بوجود مذهب نحوي سار عليه البصريون ، وآخر سار عليه الكوفيون ، إن ذلك يبدو واضحاً من ربطهما الدائب المتسلسل بين الشيخ ومن تابعه في مذهبه من تلاميذه ، وفي تقديم البصريين على الكوفيين؛ لأن البصرة شادت صرح النحو ورفعت أركانه قبل الكوفة ، كما يبدو وعيهما واضحاً جليّاً في أنهما كليهما لم يخصا بغداد

بدرس مستقل[٩٧]، لكننا نرجح أن عقدَ الزبيدي أبواباً للنحويين المصريين والقرويين والأندلسيين ربما لم يكن اقتناعاً منه بوجود مذاهب أو قل مدارس في هذه الأقاليم بقدر ما كان سعياً للإحاطة بعلماء النحو فيها، خاصةً بلاده الأندلس التي كان حريصاً على إظهار مشاركة أعلامها في صياغة هذا العلم والتأليف فيه .

وعلى أية حال فإن الأجيال التالية للزبيدي وأبي الطيب قد وجدت نفسها مقتنعة بوجود مذاهب نحوية أو قل مدارس على نحو ما رأينا عند ابن النديم في "الفهرست"، وعلى نحو ما هو واضح في كتاب "الإنصاف في مسائل الخلاف" لابن الأنباري.

وفي العصر الحاضر تلقى الباحثون تراثنا القديم بقدر واضح من التمحيص، ذلك أن الناظر إلى المذاهب النحوية ، أو قل المدارس النحوية التراثية يلحظ أنها قامت- في الأغلب الأعم- على المعيار الجغرافي، وعلى الانتساب إلى المكان الذي يقيم العلماء فيه، فالنحاة في البصرة بصريون ، وكذا الشأن في الكوفة وسائر الأمصار الإسلامية التي ازدهر فيها الدرس النحوي ، وهكذا ، وفي ظل هذا المعيار، فإن من غير السهل علينا أن نبرز الفروق الحقيقية والاتجاهات الفكرية لهذه المدارس ، ومما يزيد الأمر مشقة اختلاف أبناء المدرسة الواحدة في المسألة المتناولة ، واتفاق بعضهم مع أصحاب المدرسة الأخرى على نحو ما هو مشهود في خلافات الأخفش والمبرد مع سيبويه والخليل وخلاف الفرّاء مع الكسائي .

ونظراً لاتفاق المدارس النحوية في الأصول العامة التي قامت عليها المدرسة البصرية فإننا نرى المستشرق فايل وإبراهيم السامرائي ينكران على الكوفيين ومن جاء بعدهم أن يكون لهم مدارس مستقلة[٩٨] ، يقول إبراهيم السامرائي: (وإننا لا نملك الحق الذي يخولنا أن نقول: إن الكوفيين من النحاة قد استطاعوا أن يؤلفوا مدرسة جديدة تختلف كل الاختلاف عن طريقة البصريين... ولابد أن نخلص فنقول: إن عامة مسائل

الخلاف التي وردت في كتاب الإنصاف، لا يمكن أن تجعل من الكوفيين نحاة من نمط جديد ، وأن مذهب هؤلاء الكوفيين في توفرهم على هذه المسائل الخلافية لا يمكّن الباحث أن يطلق عليهم مدرسة ، وإن استعمال مدرسة بهذا المعنى من اصطلاحات الباحثين في عصرنا الحاضر[٩٩]، ثم تراه في موضع آخر يذهب إلى أن من الصعب علينا أن نلتمس معالم الطريق إلى انبعاث مذهب بغدادي، أو أندلسي، أو مصري، فهذا التقسيم عنده جغرافي وليس منهجياً فكرياً[١٠٠].

وثمة فريق آخر يقول بأن للكوفة مدرسة متميزة عن البصرة ، وإذا سألتهم عن أصولها أجابوك ، بأن أصول المدرستين واحدة ، ولكن الكوفيين يتميزون بمرونتهم في تناولهم إياها وبمصطلحاتهم التي وضعوها ، وبخلافهم مع البصريين خلافاً صنَّفَ ابن الأنباري بمقتضاه سفره النفيس "الإنصاف في مسائل الخلاف".

وأصحاب هذا الاتجاه كثر يتقدمهم مهدي المخزومي ، وعبد الرحمن السيد، وتمام حسان، وشوقي ضيف [١٠١] الذي ذكر ثلاث مدارس أخرى هي البغدادية والأندلسية، والمصرية. ويجمعها قاسمٌ مشترك ، يقوم على المزج ، والاختيار بين المذهبين[١٠٢]. وقد اعترض المخزومي ، وعبد الفتاح شلبي ، بشدة على أن يكون قد ظهر ببغداد مدرسة ثالثة فنحاتها هم إما بصريون أو كوفيون، وبطبيعة الحال فإن الأمر يسري تلقائياً على نحاة الأندلس ومصر [١٠٣] .

على أن من الباحثين من يعترض ليس على الاعتداد بهذه المدارس المتأخرة فحسب ، بل على حشر عدد من أعلام النحو في مدرسة واحدة ، ليس بسبب حاجز المعيار الجغرافي فحسب ، بل لاختلافهم في المدرسة الواحدة، وتشابكهم مع نظرائهم في المدارس الأخرى[١٠٤]، ولنأخذ الأخفش والمبرد مثلين على ما نقول، إنهما لا يربطهما بالجماعة إلا خيط ضعيف ، فقد كان الأول كثير الخلاف مع أستاذيه ، وأما الثاني فقد قسا على سيبويه قسوة لم يقسها أحد من قبله ولا بعده ، ثم إن المتأمل في مباحث

العالمين يجد اختلافاً واضحاً بينهما في المنهج والخط الفكري . وقد وصفه أحمد مختار عمر بأنه اختلاف جوهري[١٠٥] ، ويمكن أن يقال مثل ذلك على الفراء في المدرسة الكوفية ، فقد كان كثير الخلاف على الكسائي في الشكل والموضوع على نحو ما وصفه مهدي المخزومي [١٠٦] .

وقد ارتأى بعض الدارسين أن نعدل عن التقسيم الجغرافي للمدارس وأن ننسبها إلى أئمة النحو ، فنقول مثلاً: مدرسة سيبويه ، ومدرسة الزمخشري، ومدرسة ابن مالك[١٠٧]؛ لأننا بذلك نُخلّص أنفسنا من قيد المعيار الجغرافي ، وقيد الكلية في المدرسة الواحدة ، ونعطي المشاهير حقهم الذي ربما لا يكون واضحاً في ظل الجماعة على كثرة ما بينهم من خلاف .

لقد قصدنا من هذه الإطالة أن ننتهي بما ابتدأنا به من أن المحدثين قد تعاملوا مع قضية المذاهب أو المدارس النحوية بقدر واضح من الحيطة والحذر، أما فيما يتعلق بموقفنا فإننا نرى أن هذه المسألة تفضي إلى ما يلي:

أ-إن تقسيم النحو العربي إلى "مذاهب" أو "مدراس" قد وقع أسير قيد المكان.

ب-إن إطلاق مصطلح" مدارس" جاء من قبيل التساهل؛ لأنها لا تقوم على أصول تميزها عن الأصول التي قامت عليها البصرة والكوفة، بل إن هذه الأخيرة تفتقد هذه الأصول، وإن كانت طريقتها في تناولها فضلاً عن مصطلحاتها وعواملها ومعمولاتها- قد تؤهلها لأن تكون مدرسة مستقلة، وإنه لو قدر لنقود ابن مضاء القرطبي الذيوع بين علماء العربية القدماء لكان بالإمكان القول بوجود مدرسة عربية مناظرة لمدرسة النحو العربي التراثية في بيئاته العربية المختلفة؛لذا فنحن نرى أن النحو العربي رغم اختلاف بيئاته الجغرافية المتعددة في البصرة أو الكوفة أو بغداد أو الأندلس أو مصر يشكل نحواً واحداً سار على أصول واحدة أحكمت صياغتها البصرة ، وإن خلافات النحاة في هذه الأصقاع قد دارت رحاها في إطارها، حيث لم تمس جوهر النظرية النحوية ؛ فالفروق بين النحو

في بيئاته المختلفة أو إن شئت فقل إن الفروق القائمة بين مذاهب النحاة في تراثنا النحوي العربي ضيقة ولا تنهض دليلاً مؤهلاً للقول بتمييز مدارس نحوية فيه ، وذلك بخلاف ما نلمسه من فروق جوهرية في مدارس اللغة الحديثة ، فاختلاف مناهج هذه المدارس ومضامين دراستها يجعلنا نقول بأن هناك مدرسة نحوية وصفية ومدرسة تحويلية أو توليدية ومدرسة تاريخية ومدرسة مقارنة .

الخاتمة

وبعد،

فقد نظرنا في كتب" طبقات النحويين واللغويين"، فإذا هي مصنفات ثرية تيسر للباحث كثيراً من المعلومات التي يريدها منها، ثم نظرنا فيها بعين بحثنا ، فإذا المتأخر منها أقرب إلى كتب تراجم الأعلام منه إلى كتب الطبقات ؛ لتحلله من قيد الطبقة الذي رأيناه عند ابن سعد والجمحي .

ثم كان وقوفنا على الكتابين الرائدين : "طبقات النحويين واللغويين" للزبيدي، و"مراتب النحويين" لأبي الطيب اللغوي ، فإذا هما جديران بأن يوصفا بأنهما من كتب الطبقات فقد استوفيا شروطها ، وأصيلان لم يسبق إلى منهجيهما سابق ممن ألفوا في أعلام النحو ، ولم يلحق بهما من الأقدمين لاحق ، وتظهر من خلالهما سعة ثقافة مؤلفيهما وتبرز شخصيتاهما في نزوعهما نحو الاستقلالية والتميز ، رغم تأثرهما بابن سعد والجمحي ، ورغم ما أبدينا عليهما من مآخذ .

وفي معرض كلامنا عن أسلوب كتب الطبقات عامةً أشرنا إلى سمة الحياد والمنهج العلمي، واللغة المتوازنة المعتدلة التي صيغت بها إلا قسوة واضحة من أبي الطيب على أبناء دهره عامةً، وتعصباً منه على الكوفيين في غير موضع تعصباً لا مبرر له.

وفي كلامنا عن أثر كتب طبقات النحويين عامةً في العصر الحاضر رأينا أن الباحثين قد تفاعلوا معها تأليفاً في كتب ذات عدد ، وبحثاً في قضايا أهمها:

أ-إعادة النظر في هيكل الطبقات، إعادة هادئة عند محمد طنطاوي وعبد الرحمن السيد، حادةً مصطرعة عند المخزومي والسامرائي ، متأرجحة بين الهدوء والحدة عند شوقي ضيف . وقد انتهى رأينا في هذه المسألة إلى أن شجرة أعلام النحو العربي لها جذع طويل يتسع لأبي الأسود وتلاميذه وتابعيه ، وأنه لا يعقل أن يستثنى هؤلاء من تاريخ

النحو العربي ، وأن يؤرخ لنشأة علم النحو بأساتذة الخليل ؛ لأن العلوم لا تنشأ فجأة من فراغ.

ب- التشكيك في ريادة أبي الأسود الدؤلي وتلاميذه في نشأة النحو العربي ، وقد عرضنا آراء الباحثين من مستشرقين وعرب، وخلصنا إلى أن صنيع أبي الأسود في النحو العربي يشبه صنيع المهلهل في الشعر ، فقد بدأ بسيطاً ثم أخذ يتعاظم على يد الذين جاءوا من بعده.

ت-أصالة النحو العربي، وبعد عرضنا لآراء الباحثين من مستشرقين وعرب في هذه المسألة، نبهنا على أن موضوعها هو أصالة النحو العربي في حقبة النشأة فحسب ، وعليه فإذا قبلنا أن النحو العربي قد نشأ على يد علي -كرم الله وجهه- ، أو على يد أبي الأسود الدؤلي - كما جاء في كتب الطبقات والتراجم - قد نشأ عربياً خالصاً بعيداً عن المؤثرات الفكرية الأجنبية التي لم تكن قد وجدت سبيلها إلى الفكر العربي في ذلك الزمن المبكر جداً من فجر الإسلام ، أما إذا سلمنا أن نشأة النحو قد بدأت في زمن الخليل ومن جاء من بعده فإن ثمة فرصة للشك في أصالة النحو العربي؛ لأن الاحتكاك بالثقافات الأجنبية كان قد أخذ يقوى آنذاك .

ث-طبقات النحويين والمدارس النحوية، أكدنا في هذا المجال أن الزبيدي وأبا الطيب في تصنيفهما كتابيهما صدر عن وعي تام بوجود مذهب نحوي سار عليه البصريون ، وآخر سار عليه الكوفيون، كما يبدو وعيهما واضحاً جليّاً في أنهما لم يخصا بغداد بدرس مستقل ، وأشرنا إلى أن ابن النديم من بعدهما قد بدا مقتنعاً بوجود ثلاثة مذاهب في البصرة والكوفة وبغداد ، وأن بروكلمان في العصر الحاضر قد تابع ابن النديم مستخدماً مصطلح "مدرسة" العصري الفضفاض مكان مصطلح "مذهب" التراثي ، ثم فشا مصطلح المدرسة في مؤلفات المعاصرين ومباحثهم .

وفي معرض كلامنا عن مدى أهلية مراكز الإبداع النحوي في الأمصار الإسلامية لأن توصف بأنها مدارس نحوية ذكرنا خلاف الباحثين المحتدم حول هذه المسألة ، ثم انتهى رأينا إلى أن مدارس النحو العربي قد وقعت أسيرة قيد المكان ، وأنها في معظمها قد سميت مدارس من قبيل التساهل لأن أصولها بصرية ، وقبلنا -على مضض ظاهر واستحياء- اعتبار الكوفة مدرسة ثانية بعد البصرة ، وقلنا بفرصة قيام مدرسة نحوية أندلسية لو قدر لنقود ابن مضاء القرطبي الذيوع، و التأليف في ضوئها.

والله الموفق والمُستعان

الحواشي

١-انظر تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ، جـ٣/ ص٨ ، جـ٦ ص١ .

٢- تناول كتاب (الطبقات الكبرى) لمحمد بن سعد سيرة مطولة للرسول -صلى الله عليه وسلم- ثم عرض تراجم مقسمة إلى طبقات للصحابة ، والتابعين ، وتابعيهم إلى سنة (٢٣٠هـ) ، وتناول كتاب (طبقات فحول الشعراء) لمحمد بن سلام الجمحي شعراء العرب في الجاهلية والإسلام ، واضعاً إياهم في طبقات، على أساس من كثرة الشعر ، وجودته ، وتنوعه .

٣-انظر على سبيل المثال: طبقات النحويين واللغويين :ص١+ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: جـ١/ ص٣+تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان: جـ٢/ ص١٢٥+علم اللغة العربية للدكتور محمود فهمي حجازي: ص٧٣-٧٥ .

٤-انظر: أخبار النحويين البصريين للسيرافي+ملاحظات الدكتور محمود فهمي حجازي على هذا الكتاب في كتابه: علم اللغة العربية: ص٧٤-٧٥ .

٥-ذكر بروكلمان في تاريخ الأدب العربي جـ٢/ ص٢٤٢ أن وفاة أبي الطيب اللغوي كانت في سنة ٣٨١هـ ٩٩١م ، ولعل ذلك من التصحيف ، إذ الثابت أن وفاته كانت في سنة (٣٥١هـ)عندما احتل الدمستق حلب وحاصر قلعتها.

٦-انظر الفهرست: ص١٥٠ + ١٥٣ + ٢٥١ .

٧-انظر على سبيل المثال استعراض ابن سعد لطبقات الصحابة والتابعين .

٨-انظر طبقات فحول الشعراء جـ١ ص٢٣-٢٤.

٩-انظر طبقات فحول الشعراء جـ١ ص٤٩-٥٠ .

١٠-انظر طبقات الحنابلة لأبي الحسن محمد بن أبي يعلى: جـ١/ ص٢٣٨ ،وانظر ترجمة العباس بن محمد في الكتاب المذكور جـ١/ ص٢٣٦ ،علماً أن ابن أبي يعلى نفسه قد جعل أصحابه وتابعيه في ست طبقات: الطبقة الأولى في ذكر أصحاب الإمام

أحمد، والطبقة الثانية في ذكر أصحاب أصحابه، وكذلك الطبقات التي بعدهما على الترتيب، وقد جاءت الطبقة الأولى والثانية على حروف المعجم في أوائل الأسماء، وكذلك أسماء آبائهم،أما الطبقات الأربعة الأخرى فقد رتبها على تقدم العمر والوفاة.انظر طبقات الحنابلة جـ١/ص٢٠.

١١-انظر رأي د. حجازي في كتب طبقات النحويين المتأخرة، في كتابه: علم اللغة العربية ص٨٢.

١٢-انظر ابن سلام وطبقات الشعراء: للدكتور منير سلطان: ص١٤١-١٤٢-١٤٣

١٣-انظر مراتب النحويين: ص٢١، ص١١٨، ص١٣٣، ص١٤٤، ص١٥٥.

١٤-انظر في هذا الشأن :

أ-خلاصة رأي محمود محمد شاكر في لفظ طبقة ، فقد ورد معنى مراتب الناس ومنازلهم بمعنى طبقة ، انظر طبقات فحول الشعراء جـ١ ، مقدمة المحقق ص٦٦ .

ب-المصادر الأدبية واللغوية للدكتور عز الدين إسماعيل ، حيث يرى أن الطبقة والمرتبة شيء واحد. انظر ص٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ .

ت-ابن سلام وطبقات الشعراء للدكتور منير سلطان ، ص١٨٤ .

١٥-في زماننا الحاضر نهج الشيخ محمد طنطاوي نهجاً قريباً من نهج الزبيدي. انظر كتابه نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة .

١٦-يكفيك أن تنظر فهرس كتاب الزبيدي لتتحقق مما ذكرناه . انظر ص٣١٥-٣٢٩.

١٧-يقصد البصرة والكوفة .

١٨-مراتب النحويين ص١٥٥-١٦٠ .

١٩-علم اللغة العربية للدكتور محمود فهمي حجازي ص٨٢ .

٢٠-انظر مقدمة مراتب النحويين ص١٧-١٩ .

٢١-ينقه: أي يفهم .

٢٢-مراتب النحويين ص١٩ .

٢٣-انظر نزهة الألباء: ص٢٣٠ .

٢٤-مراتب النحويين: ص٤٨، وقد توفي الرؤاسي في خلافة الرشيد .

٢٥-السابق: ص١٢٠-١٢١ .

٢٦-السابق: ص٥٢-٥٣.

٢٧-الضمير يعود على علماء البصرة .

٢٨-مراتب النحويين ص٥١ .

٢٩-انظر ابن الأنباري وجهوده في النحو للدكتور جميل علوش: ص١٢٤-١٢٥ .

٣٠-السابق: ص١٢٥ .

٣١-نزهة الألباء: ص٦١ .

٣٢-انظر مقدمة طبقات فحول الشعراء ، السفر الأول ص١٢-٢٣ .

٣٣-نزهة الألباء: ص٢١ .

٣٤-انظر مراتب النحويين: ص١٣٧ .

٣٥-يريد الجهلاء .

٣٦-مراتب النحويين: ص٢١ .

٣٧-يريد حماد الراوية .

٣٨-مراتب النحويين: ص١١٨ .

٣٩-السابق: ص١٣٣.

٤٠-طبقات فحول الشعراء ، السفر الأول ص٢٣-٢٤ .

٤١-طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص١٥٧ .

٤٢-كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد تحقيق الدكتور إحسان عباس.

٤٣-طبقات فحول الشعراء ، السفر الأول ص١٥٥-١٥٩. ويقول الدكتور منير سلطان في هذا الشأن: "وتطول الطبقة الأولى؛ لأن الكاتب يريد التعريف بأشياء كثيرة حتى إذا وصل إلى الطبقة السابعة لم يجد ما يقوله سوى أنه عرض أسماء الشعراء" . ابن سلام وطبقات الشعراء: ص١٤٣ .

٤٤-مراتب النحويين: ص٤٨ ، ٥٢ ، ٥٣ .

٤٥-السابق: ص١٢٢ ، ١٢٦-١٢٩ ، ١٣٠-١٣٢ ، ١٣٥-١٣٧.

٤٦-تعريف اليزيديين ، في طبقات الزبيدي ص٢٤ .

٤٧-مراتب النحويين: ص١٥٤-١٥٥ .

٤٨-السابق: ص١٣٧ .

٤٩-انظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان: جـ١/ ص٢٦٣ .

٥٠-من الصعب الاطمئنان لهذه الرواية ؛ لأن وفاة سيبويه في سنة (١٨٠هـ) ، ووفاة الأخفش في سنة (٢٢٥هـ) ، وقد كانت وفاة الناشي بمصر في سنة (٢٦٣ هـ) ، والفرق الزمني والمكاني كبير بينه وبين أستاذيه .

٥١-انظر مراتب النحويين: ص١٣٧ .

٥٢-انظر الجزء الثاني من كتاب تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ص١٢٣-٢٨١.

٥٣-هذا التاريخ هو تاريخ الطبعة الثانية وهو في الأصل رسالة دكتوراة تقدم بها مهدي المخزومي في سنة (١٩٥٣م)، ثم طبعتها وزارة المعارف العراقية ، ولا يوجد على غلاف الكتاب أو داخله تاريخ الطبعة الأولى .

٥٤-هذا التاريخ هو تاريخ طبع الكتاب ،وهو في الأصل رسالة دكتوراة أجيزت قبل ذلك .

٥٥-وهم سبع طبقات عند الدكتور عبد الرحمن السيد، لكن الخلاف بينهما في أسماء الطبقات الأولى .انظر مدرسة البصرة النحوية للدكتور عبد الرحمن السيد:ص٤١٨-٤٢٤ .

٥٦-نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة للشيخ محمد الطنطاوي: ص٦٨-١٢١.

٥٧–يقصد عبد الرحمن بن هرمز ، ونصر بن عاصم وعنبسة الفيل ، ويحيى بن يعمر.

٥٨–انظر: عبقري من البصرة للدكتور مهدي المخزومي ص٧٥ .

٥٩–السابق: ص٧٥.

٦٠–السابق: ص٧٥–٧٦ .

٦١–مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ،للدكتور مهدي المخزومي ص٧٩ .

٦٢–السابق: ص٧٥ .

٦٣–السابق: ص٧٧ .

٦٤–المدارس النحوية أسطورة وواقع للدكتور إبراهيم السامرائي: ص٣٤ .

٦٥–يريد مدرسة البصرة .

٦٦–المدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف ص٥ .

٦٧–طبقات فحول الشعراء ، السفر الأول ص١٢ .

٦٨–طبقات النحويين واللغويين:للزبيدي ص٢١–٢٦ +مراتب النحويين:لأبي الطيب اللغوي ص٢٤.

٦٩–نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ص٢٧–٢٨ .

٧٠–مدرسة البصرة النحوية:ص٥١ .

٧١–الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي: ص١٣، ١٩ .

٧٢–العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب: ص٢١.

٧٣–تاريخ الأدب العربي لبروكلمان: جـ٢/ ص١٢٨.

٧٤–السابق: جـ٢/ ص١٣٢ .

٧٥–السابق: جـ٢/ ص٢٨ وما بعدها .

٧٦-انظر: مقال الأستاذ إبراهيم مصطفى" أول من وضع النحو" في مجلة جامعة فؤاد الأول، العدد العاشر جـ٢ ص١-٦ +من تاريخ النحو العربي دراسة ونصوص: أ.د.حلمي خليل: ص١٧-١٩.

٧٧-البحث اللغوي عند العرب: ص٦٥+ ودراسات في اللغة والنحو للدكتور حسن عون: ص٥٩.

٧٨-مدرسة البصرة النحوية: ص٥١.

٧٩-السابق: ص٥١ .

٨٠-انظر مثلاً كلامه عن أبي الأسود، وعبد الرحمن بن هرمز ، ونصر بن عاصم ، ويحيى ابن يعمر ،وعنبسة الفيل ،وميمون الأقرن ،ولاحظ حرصه على إظهار أثر كل واحد من هؤلاء في النحو العربي،انظر ذلك في كتاب الحلقة المفقودة: ص١١-١٠٢ .

٨١-نزهة الألباء: ص ١٧-١٨-٢١+ إنباه الرواة: جـ٤/ ص٧ .

٨٢-النص في كتاب الحلقة المفقودة: ص١٤ .

٨٣-تاريخ الأدب العربي: جـ٢/ ص١٢٣ .

٨٤-انظر كلام ليتمان في ضحى الإسلام لأحمد أمين: جـ٢/ ص٢٩٤ ، وكلام دي بور وفايل في كتاب تاريخ الفلسفة الإسلامية ترجمة عبد الهادي أبو ريدة ص٤٥-٤٦.

٨٥-تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان: جـ١ ص٢١٩-٢٢٠ ، ويذهب الدكتور مصطفى نظيف مذهباً قريباً من ذلك في مقالته: نقل العلوم إلى اللغة العربية، انظر مجلة مجمع اللغة العربية(القاهرة) جـ٧/ ص٢٤٨ .

٨٦-ضحى الإسلام: جـ٢/ ص٢٩٤ .

٨٧-تقويم الفكر النحوي ، للدكتور أبو المكارم ص٦٨-٦٩ ، وقد ذهب الدكتور شوقي ضيف هذا المذهب من قبل ، انظر المدارس النحوية ص٢٠ .

٨٨-تقويم الفكر النحوي: ص٧٧-٧٩.

٨٩-السابق: ص٩٣-١٠٥ .

٩٠-نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة: ص٢١-٢٣ +مدرسة البصرة النحوية: ص٩٤-١٠٧+عبقري من البصرة: ص٨٥-٩٤ .

٩١-مراتب النحويين ص١٥٥-١٦٠ .

٩٢-انظر الفهرست: المقالة الثانية: ص٦٢-١٤١.

٩٣-انظر تاريخ الأدب العربي جـ٢ ص١٢٤-١٢٥ . وكان سيمون فايل ت١٨٨٩م قد سبق بروكلمان إلى استخدام مصطلح مدرسة ، وذلك في تقديمه لكتاب الإنصاف في مسائل الخلاف، الذي طبع في عام ١٩١٣ طبعة ليدن .

٩٤-البحث اللغوي عند العرب: ص١١٦-١١٧.

٩٥-السابق: ص١١٦ .

٩٦-السابق: ص١١٦.

٩٧-سبق لنا أن رأينا موقف أبي الطيب من النحو والنحاة في بغداد .

٩٨-انظر آراء فايل في: المدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف: ص١٥٥- ١٥٦ الدرس النحوي في بغداد للدكتور مهدي المخزومي: ص١٠٢-١٠٧ ، وانظر آراء إبراهيم السامرائي في كتابه: النحو العربي نقد وبناء ص٤٩ ، ٥٦-٦٧، ولعله يبدي هنا رأيه في كتاب المخزومي "مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو"، وانظر كتابه المدارس النحوية: ص١٢-١٣.

٩٩- في النحو العربي نقد وبناء: ص٤٩ ، ٥٦ ، انظر مقالة السامرائي: " ألنا مدارس نحوية؟" في مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، يوليو ١٩٨٣م ص٧-٢٢، وكتابه المدارس النحوية: ص١٤٥-١٤٧، وانظر كتاب من تاريخ النحو العربي للدكتور حلمي خليل ص١٤٢ .

١٠٠- في النحو العربي نقد وبناء ص٥٩-٦٠ .

١٠١-انظر رأي تمام حسان في كتابه الأصول: ص٣٧-٤٣،وعلى الرغم من اتفاق شوقي ضيف،والمخزومي على وجود المدرسة الكوفية فإن مهدي المخزومي لم يرقه ما ذهب إليه شوقي ضيف من أن سعيد بن مسعدة "الأخفش الأوسط" وهو بصري قد هيأ الأسباب لظهور المدرسة الكوفية بكثرة خلافه على سيبويه والخليل .انظر النقد الموجه إلى شوقي ضيف في هذا الشأن في كتاب الدرس النحوي في بغداد ص١١٠-١٢١ .

١٠٢-انظر المدارس النحوية: باب المدرسة البغدادية: ص٢٤٥-٢٨٧ والمدرسة الأندلسية: ص٣٢٧-٣٦٥ . وقد ذهب أحمد مكي الأنصاري إلى القول بوجود المدرسة البغدادية، غير أن المهم في رأيه أنه اعتبر الفراء رأسها وليس كوفياً، وذلك ما جَرَّ عليه النقد، انظر: أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة: ص٣٧٧ وما بعدها، انظر النقد الموجه إليه في كتاب الدكتور شوقي ضيف "المدارس النحوية" ص١٥٦-١٥٧+ كتاب الدكتور مهدي المخزومي: الدرس النحوي في بغداد: ص٢٤٣-٢٤٧ .

١٠٣-انظر الدرس النحوي في بغداد: ص٢٢٤-٢٤٧ ، وأبو على الفارسي: للدكتور عبد الفتاح شلبي ، ص١٠٦ .

١٠٤-انظر اعتراض سعيد الأفغاني على المعيار الجغرافي في تقسيم المدارس النحوية في كتابه "في أصول النحو العربي ص١٩٦-١٩٧ ، وانظر في هذا الشأن كذلك البحث اللغوي عند العرب: ص١٢٠+ في النحو العربي نقد وبناء: ص٥٩-٦٠.

١٠٥-البحث اللغوي عند العرب: ص١١٨ .

١٠٦-مدرسة الكوفة: ص١٤١.

١٠٧- تطور الدرس النحوي للدكتور حسن عون: ص٤٩-٥٠ ، ويذهب أحمد مختار عمر إلى رأي قريب مما ذهب إليه الدكتور حسن عون؛ إذ دعا إلى أن نتحرر من نظام المدارس المألوف، ونتجه إلى دراسة النظريات التي أبدعها الأئمة كنظرية سيبويه في

الالتزام بما سمع عن العرب ، ونظرية الفراء في النصب على الخلاف ، ونظرية ابن فارس في رد الكلمات الكبيرة البنية إلى أصول أقل حجماً ، انظر البحث اللغوي عند العرب: ص١٦٤.

المصادر والمراجع

أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة: د. أحمد مكي الأنصاري، نشر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، ١٩٦٢م.

أبو علي الفارسي: د. عبد الفتاح شلبي، مطبعة دار نهضة مصر ١٣٣٧هـ.

أخبار النحويين البصريين: أبو سعيد السيرافي، تحقيق طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٥٥م.

ألنا مدارس نحوية: د.إبراهيم السامرائي، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، يوليو ١٩٨٣م.

أول من وضع النحو: أ. إبراهيم مصطفى، مجلة كلية الآداب- جامعة فؤاد الأول، ع١٠/ج٢/ ديسمبر ١٩٤٨م.

الأصول، دراسة ابيستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب: د. تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م.

ابن الأنباري وجهوده في النحو: د.جميل علوش، الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس / ١٩٨١م.

إنباه الرواة على أنباه النحاة: جمال الدين أبو الحسن علي القفطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠١هـ -١٩٨١م.

الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين، أبو البركات الأنباري، ومعه كتاب "الانتصاف من الإنصاف" لمحمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار إحياء التراث العربي، د.ت.

ابن سلام وطبقات الشعراء: د.منير سلطان، منشأة المعارف- الإسكندرية، ط١/١٩٧٧م.

البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر: د. أحمد مختار عمر، مطابع – سجل العرب، الناشر: عالم الكتب، القاهرة ، ط٤/ ١٩٨٢م.

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار الفكر، ط٢/ ١٣٩٩هـ– ١٩٧٩م.

تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان، (ج٢) و(ج٣)، نقله إلى العربية د. عبد الحليم النجار، دار المعارف بمصر، ط٢/١٩٦٨م + ط٤/١٩٧٧م.

تاريخ آداب اللغة العربية: زيدان، جرجي، نشر دار مكتبة الحرية، بيروت – لبنان، ط٢/١٩٧٨م.

تطور الدرس النحوي: د.حسن عون، مطبعة الكيلاني، معهد البحوث والدراسات العربية– القاهرة، ١٩٧٠م.

تقويم الفكر النحوي: د.علي أبو المكارم، دار الثقافة، بيروت– لبنان.

الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي: د. عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة– بيروت، ط٢/١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.

دراسات في اللغة والنحو العربي: د.حسن عون، مطبعة الكيلاني، معهد البحوث والدراسات العربية– القاهرة، ١٩٦٩م.

الدرس النحوي في بغداد: د.مهدي المخزومي، دار الرائد العربي، بيروت – لبنان، ط٢/١٩٨٧م.

ضحى الإسلام: د. أحمد أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٥م.

طبقات الحنابلة: أبو الحسن محمد أبو يعلي، وقف على طبعه وصححه محمد حامد الفقي.

طبقات فحول الشعراء: محمد بن سلام الجمحي، شرحه وحققه محمود محمد شاكر، مطبعة دار المعارف- القاهرة، ١٩٧٤م.

الطبقات الكبرى: محمد بن سعد، تحقيق د. إحسان عباس، ط بيروت، ١٩٦٠م.

طبقات النحويين واللغويين: أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٧٣م.

عبقري من البصرة: د.مهدي المخزومي، دار الرائد العربي، بيروت -لبنان. ط٢/١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

علم اللغة العربية مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغة السامية: د.محمود حجازي، نشر وكالة المطبوعات بالكويت، ١٩٧٣م.

العربية،دراسات في اللغة واللهجات والأساليب: يوهان فك، مع تعليقات المستشرق الألماني شبيتالر،ترجمة د.رمضان عبد التواب،مكتبة الخانجي بمصر،١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

الفهرست: أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحق النديم، ضبطه وشرحه وعلق عليه د.يوسف علي طويل، وضع فهارسه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط بيروت،١٩٩٦م.

في أصول النحو: سعيد الأفغاني، جامعة دمشق، ط٣/١٩٤٦م.

في النحو العربي نقد وبناء: د.إبراهيم السامرائي، دار الصادق- لبنان، ١٩٦٨م .

المدارس النحوية، أسطورة وواقع: د.إبراهيم السامرائي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ط١/١٩٨٧م.

المدارس النحوية: د. شوقي ضيف، المدارس النحوية دار المعارف بمصر، ١٩٧٦م .

مدرسة البصرة النحوية نشأتها وتطورها: د.عبد الرحمن السيد ، توزيع دار المعارف بمصر، ط١/١٩٦٨م.

مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو: د. مهدي المخزومي شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٢/١٩٥٨م.

مراتب النحويين: عبد الواحد بن علي أبو الطيب اللغوي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر- الفجالة، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي: د.عز الدين إسماعيل، دار المعارف بمصر، ط٢/ ١٩٨٠م.

من تاريخ النحو العربي، دراسة ونصوص: د. حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية، ط١/١٩٩٥م.

نزهة الألباء في طبقات الأدباء: أبو البركات عبد الرحمن ابن الأنباري، مكتبة المنار، الزرقاء - الأردن، ط٣/ ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة: محمد طنطاوي، دار المعارف بمصر، ط٥/١٩٧٣م.

نقل العلوم إلى اللغة العربية: د.مصطفى نظيف، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، ج٧/(ص٢٤٢/٢٥٣).